في المستعمرة الفلسفية
جينيالوجيا الأثر الفلسفي

In the philosophical colony
Genealogy of Philosophical Impact

أ. أشملال حدو

جامعة سيدي محمد بن عبد الله

فاس، المغرب

haddou.achemlal@usmba.ac.ma

في المستعمرة الفلسفية
جينيالوجيا الأثر الفلسفي

أ. أشملال حدو

الملخص:

تسعى هذه القراءة التركيبية لنص كاثرين كونيغ برالونغ (C. König-Pralong) إلى مساءلة ما أنتجه الخطاب الفلسفي في تاريخ الفلسفة الإشكالي من مقولات ومفاهيم تتجاور وطبيعة اللحظة التاريخية والنظرية، خاصة في "الغرب الأوروبي". إن استيعاب ممكنات هذا الخطاب الفكرية في استبعاد لشروطه البنيوية والتاريخية، فضلا عن أسسه النظرية والجيوسياسية، ليعد عملا تبسيطيا ومعلقا ضمن بداهات جعل منها مؤرخو الفكر حقائق لا تقبل النقد بمبرر عقلانيتها، واندغامها ضمن اتّجاه فلسفيّ محدد تستبطنه نزعة "المركزية الغربية". هل يعني ذلك، أن الفكر لا يصير "فكرا فلسفيا" إلا إذا كان ناطقا باسم "مركزية الغرب"؟ وهل من الممكن اقتفاء أثر الخطاب الفلسفي في خرق ضمني أو صريح لإحداثياته التاريخية والأيديولوجية؟ وهل لبراديغمات علوم الإنسان والمجتمع المكنة النظرية والمنهجية في استنطاق ما تخيطه وتنتجه الإتجاهات الفلسفية من تصورات أيديولوجية بلبوس الفكري والعقلاني-الكوني؟

كلمات مفاتيح: الخطاب الفلسفي؛ تاريخ الفلسفة؛ جيوسياسي؛ المستعمرة الفلسفية؛ المركزية الغربية.

Abstract:

This synthetic reading of the text of C. König-Pralong seeks to question the statements and concepts produced by philosophical discourse in the problematic history of philosophy that are adjacent to the nature of the historical and theoretical moment, especially in the 'Western Europe'. The assimilation of the intellectual possibilities of this discourse in an exclusion of its structural and historical conditions, as well as its theoretical and geopolitical foundations, is a simplistic and suspended work within the intuitions that historians of thought have made them facts that cannot be criticized with the justification of their rationality, and their integration into a specific philosophical direction that is embedded in the tendency of 'Western centralism'. Does this mean that thought does not become a 'philosophical thought' unless it is a spokesman for the 'centrality of the West'? Is it possible to trace philosophical discourse into an implicit or explicit rift about its historical and ideological coordinates? Do the paradigms of human and social sciences have the theoretical and methodological tools in questioning what philosophical trends sew and produce from ideological perceptions in the intellectual and rational-cosmic form?

Keywords: Philosophical Discourse; History of Philosophy; Geopolitics; Philosophical Colony; Western Centralism.

1- مُقدّمة:

المستعمرة الفلسفية*: هذا هو الاسم الذي أطلقته كاثرين كونيغ برالونغ (C. König-Pralong) على مشروع تأكيد الحداثة الأوروبية الذي يخيطه تاريخ الفلسفة في نهاية القرن الثامن عشر (ق18م) وخلال القرن التاسع عشر(ق19م). وهي تقترح تاريخا تعدّديا، متشعّبا، متداخلا بين فرنسا وألمانيا: وحدة الموضوع ليست هي الغرض من تاريخ الفلسفة هذا، ولا في موقف هؤلاء المؤرخين الذين ينتجونها، ولكن في الطريقة التي يتمّ بها وضع أسس الاتجاه الفلسفي ضمن أطر إشكالية مشتركة، يتداخل في مستواها المعرفي بالسياسي. وبالتالي، فإن قيمة هذا العمل، ترجع إلى الطريقة التي تكشف بها المؤلّفة عن تاريخ تخصّص ما - تاريخ الفلسفة -سواء من صورة واحدة، "صورة المستعمرة"، أو بناء على عديد من التجليات؛ هذا أخذا بعين النظر محور دراسة تاريخ الفلسفة "كممارسة اجتماعية ثقافية" (ص 17)، فإنها تقترب منه في سياق "تاريخ متعدد التخصصات لتاريخ الفلسفة" (ص 22). وهكذا تمر الفصول الستة، لهذا العمل، حول "المستعمرة الفلسفية" بسلسلة من الأماكن الفكرية -المركز في الطريقة التي يتم بها تطوير تاريخ الفلسفة، كممارسة تأديبية وكخطاب حول/ وفي الحقيقة: من إشكالية ذاتية المؤرخ إلى العلاقة بين الفلسفة والجغرافيا، أو إلى مسألة اللّغة الفلسفيّة. تمّ بناء استطلاع يحتوي سلسلة من النّقاط التي قد تظهر في المقاربة الأولى بشكل مستقل عن بعضها بعضا. هذا دون النظر إلى حقيقة أن كلّ من هذه الأماكن التي عمل بها تاريخ الفلسفة، تتولد عنها تداعيات متقاطعة. تحذر كاثرين كونيغ-برالونغ القارئ: "إن إعطاء اهتمام خاص لمسألة التقاطع، رهين ببناء مشاريع متعددة الإحداثيات بعيدا عن أي سرد للأحداث ودرءا لأية نجومية" (ص 22). لا يقترح هذا الاستطلاع أطروحة حول طبيعة تاريخ الفلسفة، بقدر ما يصف مخاطر هذه الممارسة الفكرية في سياق محدد؛ وذلك من خلال تاريخ "تاريخ الفلسفة" والطريقة التي تضمّ بها المعرفة وتنتجها، فإنه تظهر، ضمنيا، انعكاسية العقل الأوربي وإسقاطاته.

2- من "الحلم الطوباوي" إلى "الإمبريالية الفكرية":

يبدأ العمل بتدارس منحى تشكل " تاريخ الفلسفة". لكن هذا "التشكل" نفسه، يقال إنه نتاج نوع من الإزاحة أو التهجير. إن "المستعمرة الفلسفية" تحدّد في المقام الأول، مكانا ملموسا وخياليّا في فترة ما بعد الثورة: مكان إقليم يحكمه الفلاسفة، مع أهداف إمبريالية. ويستند تنظيمه إلى مبادئ الفلسفة. ويقدم نصيّن، في مقدمة العمل، أمثلة على ذلك. في عام 1798، أدان اليسوعي أوغسطين باروبل (Augustin Barruel)، في "مذكرات خدمة التاريخ اليعقوبي"، الأعمال السرية للطائفة الفولتايرية في فترات 1760بغرض إنشاء "مستعمرة" في بروسيا، والتي تم تعويض فشلها من خلال الانتصار الباريسي للفجور، الذي كان يعدّ للثورة بنشاط. وفي عام 1830، قدم الكاتب المناهض للثورة جان كلود دي كوسرج (Jean-Claude Clausel

---

* هذه المساهمة المتواضعة هي قراءة في كتاب كاثرين كونيغ برالونغ (Catherine König-Pralong) وتعليق عليه. أنظر: Catherine König-Pralong, La colonie philosophique. Écrire l'histoire de la philosophie aux XVIIIe et XIXe siècles, Éditions de l'EHESS, 2019, 253 p.

de Coussergues) الحركات الليبرالية الموجودة في إسبانيا خلال الحروب النابليونية على أنها "مستعمرة فلسفية" على هامش المجتمع الإسباني، معلنا دستورا مكتوبا وفقا لمبادئ العقد الاجتماعيّ. انتشر هذا المفهوم "الجيوسياسي" (ص 12) للفلسفة كممارسة إمبريالية، وخاصة في الكتابات المناهضة للثورة، تقريبا في فترات 1800. ولكن، إذا كان استحضار هذا المفهوم المستمد من الخيال الطوباوي "للمستعمرة الفلسفية" ذلك الذي تبدأ به كاثرين كونيغ برالونغ، فهي أن تأخذه في منحى معاكس يخدم مقاربتها. في السّنوات نفسها التي أصبح فيها تخيل مستعمرة ذات أهداف إمبريالية أمرا شائعا، في نهاية القرن الثامن عشر(ق18م) وفي العقود الأولى من القرن التاسع عشر(ق19م)، كانت هناك ممارسة إمبريالية أخرى للفلسفة هي التي سادت، مع ما يترتّب على ذلك من نتائج ممتدّة لأجيال لاحقة في تتبّعهم لإحداثيات تاريخ الفلسفة. إذا استمرت – تنبه الكاتبة -فكرة سياسة الفلسفة، فهي في الواقع تعبير عن "استعمار علمي مزدوج" (ص 13): استعمار بقية العالم واستعمار الماضي. وهي ممارسة علميّة ومهنيّة، ناتجة عن عملية موجّهة في الفلسفة بدأت في نهاية القرن الثامن عشر(ق18م) بألمانيا، واستمرت في بداية القرن التاسع عشر(ق19م) بفرنسا. بذلك، يظهر أن تاريخ الفلسفة كتخصّص فرعيّ يميل طابعه الشّمولي إلى جعلنا ننسى البعد السياسيّ المتحجّب في مضامينه.

ومع ذلك، فإن ما يميل العمل كله إلى التنبيه إليه؛ على عكس ما سبق، هو الطابع السياسيّ البارز لهذا التاريخ، بقدر ما هو مسألة تطوّر في المكان والزمان، للعقل، للآخر وإلى الحداثة العقلانية والعلمانية التي تُعدّ أوروبا مسرحا لها؛ هي نقطة تقابل مع أماكن أخرى يمثلها: الشّرق، العصور الوسطى، الإسلام واليونان، اليهودية والهند القديمة، التصوّف والهمجيّة. نقف، هاهنا، عند نقطة مضادّة شديدة التّعارض: تكمن قوة الموضوع هنا في إظهار الطريقة التي تبني بها الحداثة تاريخها من خلال نظرة جينيالوجية يختلف تكوينها وفقا للمواقف التي تشغلها الجهات الفاعلة. فإذا كانت الأماكن شائعة، فإن علاجها يختلف: المعنى من ذلك، أن هناك أماكن ارتبط وضعها العام بتوطين معالم ورموز فلسفية في شكلها حديثة، وفي جوهرها أوروبية، مما يجعل " العوالم" الخارجة عن أوروبا مجالا لإسقاط النتائج (ص 39)، وهذا لا يعفي من التّأكيد على طابع الاختلاف ذاك الذي يطبع النّظر الفلسفيّ، لكن داخل حلقة زمكانية محدّدة.

3- فن صناعة تاريخ الحقيقة:

تمّ بناء هذا التاريخ داخل دورات أو حلقات الفلسفة الجامعيّة. هذا البعد الداخليّ أساسيّ، لأنّه يحدّد مخاطر الممارسة: "تاريخ الفلسفة"، كاتّجاه فكريّ/إيديولوجيّ وسياسيّ؛ ذاك الذي صنعه الفلاسفة أنفسهم، ينطلق من اللّحظة الحرجة المميزة للتّنوير؛ وهي لحظة انعكاسيّة لموضوعات الحداثة. لكن، صنع تاريخ الحقيقة ليس عملا بديهيا: في الفصلين الأوّلين من الكتاب، المكرّسين لظهور هذا الاتّجاه وتحديد موقف المؤرّخ، تسعى كاثرين كونيغ برالونغ (C. König-Pralong) إلى إظهار كيفيّة تميّز تاريخ الفلسفة بحقيقة أنّه يسعى إلى إنتاج تاريخ حقيقة بلبوس المطلق والثّبات. وخلافا للدوكسوغرافيات (Doxographies) المميزة للفترة السّابقة، فإنّ "تأريخ عصر التنوير يرفض هذا المفهوم لتاريخ الفلسفة

كخزان للخبرات الفكرية وسوق للرأي" لصالح "سرد كبير لتاريخ العقل الفلسفيّ" (ص 36). ثم يطرح السّؤال عن مركز المؤرخ: "قاض أو حكم" (ص 37) يميز بين الصواب والخطأ في نهاية القرن الثامن عشر(ق18م)، ولا سيّما مع بروكر(Brucker)، ويتتبّع المجيء الطويل للعقل عبر العصور والثقافات؛ أو كمراقب علمي للتطوّرات الدّاخلية للعقلانيّة الفلسفيّة والعلاقات السببيّة بين الأفكار مع تيدمان (Tiedemann) وفي التأريخ البراغماتي للإلهام الكانطي ، كما هو الحال على الجانب الآخر من نهر الراين مع ديجيراندو(Degérando) ؛ أو من خلال مؤيّد المقاربة الثقافية في سياق الرومانسيّة الألمانية مع شليغل(Schlegel)؛ وتطوير مقاربة غائيّة موجهة من خلال الإدراك الكامل للروح في فلسفة هيغل(Hegel)...

تسافر بنا المؤلفة في طيف من المنظورات؛ وذلك من خلال إظهار كيفيّة ترجمتها للعديد من الخيارات المعرفيّة، وكيفيّة تناسب أساليب ومباحث العلوم الإنسانية التي تتطور في الآن نفسه. فمنذ عام 1830، أصبحت مشكلة موضوعية المؤرخ بارزة: تاريخية شلايرماير(Schleiermayer) أو درويسن(Droysen)، والمدرسة النمساويّة والكانطيّة الجديدة، ولكن أيضا في فرنسا من خلال عمل فيكتور كوزين (Victor Cousin)، كلّ منهم تحدّى، بطريقته الخاصة، موقف العبء الذي يعطي هيغل المثال الأكثر نجاحا لصالح التأمّل الذاتي النقدي وتأريخ ممارساتهم الخاصة.

4- في تعالق التخصّصات:

تاريخ "تاريخ الفلسفة" الذي تقدّمه كاثرين كونيغ برالونغ (C. König-Pralong) هو أيضا تاريخ متعدد التخصّصات. تاريخ "من بين آلاف المقاربات الأخرى" (ص 22)، باستثناء أنّ الموقف الشمولي القويّ الذي تحتفظ به الفلسفة، على الرغم من أنها شكلت نفسها كتخصص جامعي، وأصبحت أولا وقبل كل شيء عمل المهنيين، يعطي علاقتها بالتخصّصات الأخرى لونا معينا. تصف الفصول الأربعة الأخيرة من "المستعمرة الفلسفية" كيفيّة اعتماد مؤرخي الفلسفة على الأجهزة المفاهيمية والمنهجيّة التي يستعيرونها من مجالات العلوم الإنسانيّة، ولكن أيضا من العلوم الطبيعية -لا سيما من علم الأحياء (البيولوجيا) مع الاستخدام البارز لمفهوم "العرق". مكرسة لـ "إعادة بناء ودراسة استراتيجيات التموضع الفكري والمؤسّسي لمؤرخي الفلسفة في المشهد العلمي الجديد الذي ظهر في القرن الثامن عشر(ق18م)" (ص 183)، فمصلحتهم هي، مرة أخرى، معرفية وسياسية. وبذلك، تغدو نظرية المعرفة – في متن هذه الفصول-متجاورة مع التحويلات التأديبية التي تسمح للفلاسفة بتطوير وسائل تاريخ تخصّصهم الخاصّ -مع المشاكل المحدّدة التي يطرحها - إلى تعدّد التخصّصات القوي الذي يميز لحظة تعتبر عموما لحظة استقلاليّة التخصّصات. فهذا التاريخ سياسيّ! لأنّ تاريخ الفلسفة كتاريخ للعقل الحديث يشارك في تقسيم الواقع الذي يؤدّي بدوره إلى "تصوّر حصري للغرب كمجال للعقلانية ذات النّزعة النّقديّة والتحليليّة" (ص 205)، وكإطار متجانس، أي كـ "بيئة حيوية للفلسفة" (ص 85): تسعى كاثرين كونيغ برالونغ (C. König-Pralong) إذن، إلى أن يظهر-هذا التاريخ- من خلال عدد من الأماكن الشائعة في خطاب الفلاسفة حول جينيالوجيا ممارستهم من حيث كيفية النهل من التخصّصات الأخرى المساهمة في الشّحنة الأيديولوجية لتاريخ الفلسفة.

هنا مرّة أخرى، تكمن براعة التّحليل في الطّريقة التي تسعى بها المؤلفة إلى تتبّع حركة عامّة أكثر من وصف الطريقة التي ترسم بها الاستخدامات متعدّدة التّخصّصات للفلاسفة في اتّجاه توافق معقّد، وذلك من حيث: سلسلة من العناصر، تصف نظريات مؤرّخي الفلسفة بناء على مسارات فردية. ومن الأمثلة على ذلك: مشكلة لغة الفلسفة، التي تدارستها في الفصل الرابع، تجعل من الممكن تتبع العديد من الخيارات التي اتّخذتها الجهات الفاعلة في سياق فكريّ وثقافيّ وسياسيّ معيّن. إن هاته التّضاريس المزدوجة، الفرنسية والألمانية مثلا، تسمح بتسليط الضّوء على المخاطر القومية، بما في ذلك مناقشة الدراسات الأولى لعلم اللّغة المقارن الذي يؤسّس لفكرة الأسرة الهندية الأوروبية في ألمانيا، بحيث تشكّل اللّغة علامة على القوة الرّوحية للشعب. يجد علماء الفيلولوجيا والفلاسفة إذن، أنفسهم في موضع المطالبة بتاريخ العقل القائم على دراسة اللّغة. في حين أنّ مسألة قرب الألمانية من السنسكريتية(Sanskrit) واليونانية القديمة في ألمانيا، وإعطائها أولويّة معيّنة بين اللغات الحديثة، تصبح قضية حاسمة. أمّا في فرنسا، فإنّ الأماكن النسبيّة التي تحتلّها اللاتينية المدرسية والفرنسيّة الحديثة في تاريخ الحداثة هي التي تشكّل قلب النّقاش.

وقد تضاعفت هذه المناقشات ذات الصبغة الوطنية، والمواقف المتناقضة التي أثارتها طوال القرن التاسع عشر(ق19م)؛ على نحو كشف عن العداء الثقافي الفرنسي -الألماني، من ناحية، من خلال مسألة النظام الهندي-الأوروبي، من حيث وضع اللغات الشرقية، وخاصة الصينية، من ناحية أخرى. وهكذا تميل الدراسة برمتها إلى إظهار الطريقة التي يجب أن يفهم بها تاريخ الفلسفة على أنّه مواقف نسبيّة داخل كوكبة من الإشكالات؛ فهي مشروطة بتطور المعرفة والتمثّلات الأيديولوجية التي هي نتيجتها وتعبيرها على حدّ سواء.

وبالانفتاح على تاريخ المعرفة الأنجلوسكسونية وعلم الاجتماع في تباين تخصّصاته ومقارباته؛ يقترح كتاب كاثرين كونيغ برالونغ (C. König-Pralong) مسارا فريدا؛ من خلال نشر طريقة مقارنة تضاعف نقاط الدّعم، وتصرّ على فكرة تشابك الممارسات المعرفية والتمثّلات السياسيّة، بحيث تُظهر "المستعمرة الفلسفيّة" كيفيّة تشكّل خطاب حول "تاريخ الفلسفة"، هذا التّاريخ الذي من تمظهراته "العقلانية الحديثة".